إشكالية الأدب و التكنولوجيا

د /صالح مفقودة

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر . بسكرة

الملخص:

كثيرا ما تثار مسألة التفاضل بين الفروع الإنسانية من جهة والعلوم التكنولوجية من جهة أخرى، ولم تطرح قضية التكامل بين هذين الفرعين من فروع المعرفة البشرية وكأن المجال لا يتسع للاثنين معا ،فتم طرح القضية على أنها مسألة اختيار فرع على حساب آخر.

واتجهت بلادنا في وقت سابق للعلوم التكنولوجية، فأهملت الفروع الانسانية ،وفي مقدمتها الأدب العربي، وغذى هذا الاتجاه الأصوات المعادية للعربية والتراث الاسلامي، وصار واقعنا اللغوي قائما على التنافس والصراع بين العربية والفرنسية تحديدا .ولكل فريق مناصرون ومعارضون واستعملت في هذه الحرب وسائل مختلفة من ابرزها رفع لواء العلم والتكنولوجيا والعولمة والثورة في مجال الإعلام الآلي، فهل بين الأدب والتكنولوجيا كل هذا التناقض ؟؟أم أن المسألة مفتعلة غذتها وتغذيها نعرات طائفية ،واتجاهات أيديولوجية ؟؟

Résumé:

Souvent,la question d'une quelconque surprotéger des sciences technologiques sur les sphères humaines est avancée sans pour autant mettre en exergue leur complémentarité, comme quoi l'espace est réduit pour contenir l'une sans l'autre.

Il n'y a pas longtemps, notre pays a vu le prédominance dans le secteur et la négligence des branches humaines et en premier lieu la littérature arabe. Cette tendance a nourri des voix opposantes à l'arabe, la littérature et la culture islamique,et notre réalité linguistique s'est vue en continue compétition acharnée entre l'arabe et le français précisément. En fait ,chaque corps avaient ses supporteurs et ses opposants et les moyens utilisés étaient différents, et surtout la mise en avant-garde la technologie, de la mondialisation et de la révolution informatique.

إشكالية الأدب والتكنولوجيا:

قبل التطرق لإشكالية الأدب والتكنولوجيا، يجدر بنا أن نعرف كلمة إشكالية ،لما يكتنفها من غموض.فالإشكالية ترجمة للكلمة الأجنبية "**Problématique**".وتعني منظومة من العلاقات المتشابكة ،تنتجها مشاكل عديدة مترابطة لا يمكن حلها بصورة منفردة ،بل تتطلب حلا شاملا لها.الإشكالية إذن :هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها ،إنها توتر و نزوع نحو النظرية ،أي نحو الاستقرار **الفكري**(1).

و إشكالية فكر ما. لا تتحدد بما أنتجه هذا الفكر ، فمجالها يتسع لجميع أنواع الطروحات التي يمكن أن يقوم بها هذا الفكر ، فتعدد الآراء لا يعني تعدد الإشكالات ، إذ تتعدد الآراء ، و تختلف الأسئلة أو تتفق ، و قد تتعدد الأجوبة أو تختلف ، و قد تطرح الأسئلة ، و لا يجاب عنها، و كل ذلك لا ينال من وحدة الإشكالية ، بل قد يزيد من خصوبتها ، و هي لا تتحدد بما تم التصريح به ، بل أيضا بما تتضمنه و تحتمله ، و هذا ما يجعل الإشكالية الواحدة لا تتقيد بإطار الزمان والمكان ،بل قد تبقى مفتوحة(2).

و من أهم الإشكالات المطروحة على الوطن العربي في العصر الحاضر إشكالية النهضة ، و ما يتعلق بها من أمور عديدة ،ومشكلات جزئية مثل : مشكل الغزو الأجنبي و مسألة التربية و التعليم ، و مشكل الفقر و الأمية ، و السؤال عن جدوى الأدب في عصر التكنولوجيا جزء من إشكالية النهضة في الجزائر ، و في الوطن العربي عامة غير أن القضية في الجزائر لها طبيعتها المميزة ، ذلك أنها ترتبط بنوع التعليم عندنا وتتعلق بالهوية الوطنية ، و ترتبط بمصير الأمة.

و من هنا تأتي أهمية هذا الموضوع ، و من هنا تتعقد المسألة لتصير إشكالية يطمح هذا الموضوع لمعالجة بعض جوانبها.

رأي أفلاطون[3]في أهمية الآداب والفنون :

لم يخصص أفلاطون كتابا معينا للحديث عن الأدب بل نجد ذلك مبثوثا ضمن كتبه المتعددة وخاصة كتابه الجمهورية الذي خصص الفصل العاشر منه لرأيه في الأدب والفن .وملخص رأيه أن الفنون ومنها الأدب قائمة على التقليد(محاكاة المحاكاة) ، فالكون في رأيه ينقسم إلى قسمين :عالم مثالي أو عالم المثل[4]. ويتضمن الحقائق المطلقة ،والأفكار والمفاهيم الخالصة والعالم الطبيعي أو عالم الموجودات ،وهو مجرد صورة عن عالم المثل ،أو محاكاة له والفن هو تقليدللطبيعة فهو تقليد التقليد أو محاكاة المحاكاة ،ومن ثمة نقصه

المزدوج وزيفه أيضا وإضافة إلى ذلك فالشعر يتناول العواطف ،فبدل تجفيفها نجده يؤججها،ويلهبها فيبتعد الناس عن العقل وأحكامه، وتبعالذلك، فقدأبعد أفلاطون الشعراء من جمهوريته،وقبل بعض أنواع الشعر مثل : قصائد مدح الأبطال ، و اشترط على الشعراء عدم الخروج على القوانين والقواعد الأخلاقية[5].

غير أن مثل هذه النظرة صاحبتها و أعقبتها نظرة معاكسة تهتم بالأدب ، و نجد في هذا الإطار رأي أرسطو المساند للشعر.

رأي أرسطو في الشعر:

ألف أرسطو(384–322 ق.م) كتابا في الشعر عارض فيه آراء معلمه أفلاطون ، فرغم أخذه بمفهوم المحاكاة إلا أنه فسرها بشكل مختلف فقد رأى أن المحاكاة لاتنقل الواقع نقلا حرفيا أومرآويا "من المرآة "، بل إن الفنان لايحاكي ماهو موجود فقط وإنما ينبغي أن يصور أو يحاكي ماينبغي أن يكون ،الفن في نظر أرسطو ليس تقليدا للطبيعة بقدر ماهو إضافة حقيقية إبداعية لها ، والفن والشعر بصورة أخص له أثره في تنمية العواطف وتطهير النفوس وجعلها بالتالي تشعر بالراحة فأثر الشعر إيجابي خلافا لرأي أفلاطون من قبل(6).

و إذن فإننا منذ القديم نجد رأيين متناقضين ،أحدهما يشكك في قيمة الأدب و الآخر يدعمه و يرفع من شأنه.

طرح القضية في القرن التاسع عشر:

يزداد التشكيك في قيمة الأدب عندما يزداد الاعتداد بالعقل و تزداد الإشادة بالعلم و حقائقه ،و مناهجه ، و فوائده الجمة. و لذلك نجد في التاريخ الأوربي ، و مع سيطرة العلم في القرن التاسع عشر طرحا لهذه القضية مرة أخرى ، و مما قاله أحد العلماء المناهضين للأدب: "العالم و الفيلسوف يتقدمان و يسرعان من تطور المعرفة ، و يظل الشاعر يتمرغ في نفايات الجهل المهجور ، يخوض مستر "ساوثي" غبار الكتب الصفراء ،باحثا عن الأسفار و الحوليات القديمة لينتقي منها كل ما يراه سخيفا و تافها و باطلا ، و حين يتكون لديه كتاب مبتذل مليء بالأهوال يؤلف ملحمة، و يلتقط مستر"وردزورث" أساطير القرية من عجائزها و قسسها.

الشاعر هذه الأيام نصف بربري في جماعة متمدنة ،فعواطفه و أفكاره ، و مشاعره كلها تتم بطرائق بربرية ، و عادات منسية و خرافات مهملة ، إن مسيرة فكره تشبه مسيرة السرطان إلى الخلف دائما"[7].

و قد وجد هذا الرأي بدوره ردودا مناقضة ،تدافع عن الأدب ،فالشاعر" وردزورث[8] يقول :" الشعر يعنى بالحقائق الأولية العظمى التي تتصل بالإنسان و الطبيعة"[9].
و الشاعر "شيلي"[10]يكتب في مقال له بعنوان " دفاع عن الشعر" قائلا " الشعر سجل لأفضل وأ سعد اللحظات عند افضل و أسعد العقول"(11)

الأدب والتكنولوجيا في الجزائر:

تطرح إشكالية الأدب والتكنولوجيا ،أو بمعنى أصح جدوى الأدب في بلادنا بحدة، و لكن طرحها في ليس بريئا دائما، و يمكننا أن نقول عن أصحاب الرأي الذي يتهم الأدب بالقصور و اللاجدوى ، وبهذه الكيفية (أي الإنقاص من قيمة الأدب) إنهم إنما يعنون بالدرجة الأولى الأدب العربي و ليس الأدب بصفة عامة.و موقفهم هذا ينطلق من عداء كبير للعربية بسبب جهلهم لهذه اللغة ، أو بسبب ولائهم لفرنسا تحديدا سياسيا أو ثقافيا، و يقيسون قيمة العربية و أدبها بما يعرفونه هم عن هذه اللغة ، فتبدو لهم تافهة متخلفة ، لا تعبر عن شيء ، و لا تصلح لشيء ، و يقفون من العربية موقف من يعملون لصالحهم فلفرنساولغتها مدافعون يستميتون في الدفاع عنها بكل ما يملكون باسم العلم و العلم براء.

وبالرغم مما تحقق لفائدة الأدب واللغة العربية على مستوى القرارات السياسية أو الاختيارات الشعبية إلا أن عجلة التطور ماتزال بين الحين والآخر تلقى من يعرقل سيرهاأو يردها خطوات إلى الوراء .

لقد ضحى كثير من أبناء الجزائر من أجل سيادة اللغة العربية في الجزائر والتي لاتنفصل عن الأدب العربي ،وتحققت نتائج هامة كان من أبرزها قانون رقم 91 . 05 المؤرخ في 30 جمادى الثانية عام 1411 هـ الموافق ل16 يناير 1991 المتضمن تعميم استعمال اللغة العربية (12) ،وهو قانون مكسب يلزم في مادته الرابعة جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باستعمال اللغة العربية وحدها في كل أعمالها من اتصال وتسيير إداري ومالي وتقني وفني، وتنص المادة 11 من هذا القانون على أن تكون مراسلات جميع الإدارات والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية وحدها .

إن القانون السالف الذكر والذي لم يكن سوى مطلب شعبي وجد كثيرا من التذمر ومن المتذمرين الذين يحاولون بكل ماأوتوا من قوة أن يقف التعريب أو يتم التراجع عنه ، والحجة في ذلك هي أن التكنولوجيا تقتضي استعمال اللغات الأخرى ،والعولمة والتقدم

الإلكتروني يستلزم اللغة الأجنبية والأجنبية عندهؤلاء الفرنسية تحديدا والتي يعتبرها هؤلاء مكسبا (مقدسا) لاينبغي التفريط فيه.

إن طرح إشكالية العلم و الأدب يتطلب في اعتقادنا تصنيف أعمال الإنسان و نشاطه في القديم و الحديث فردا كان أو جماعة إلى الصنفين الآتيين(13) :

1- الجانب النظري العقلي.

2- الجانب العملي التطبيقي.

و نتساءل تحت أي نشاط أو صنف يندرج الأدب ، و الفن عامة ؟ و قبل ذلك نتساءل عن العلاقة بين هذين الصنفين من نشاط الإنسان ؟

مما لا ريب فيه أن الجانبيين المذكورين لا ينفصلان عن بعضهما ، و العلاقة بينهما علاقة تأثير و تأثر ،فالجانب العملي التطبيقي هو البنية التحتية التي تفرز البنية الفوقية الممثلة في الفكر و الفن بصفة عامة.

والأدب يدخل ضمن الفن ، وكل تغير في البناء التحتي الاقتصادي والاجتماعي يستتبع تغيرا بالضرورة في الرؤية لمفهوم المجتمع و الإنسان و اللغة و الأدب و القيم.

ولكن البنية الفوقية ليست تابعة تبعية آلية للبنية التحتية وإنما تستقل عنها نسبيا، و تعود فتؤثر فيها. كما أن عناصر هذه البنية مستقلة نسبيا عن بعضها. هناك إذن استقلال على المستوى الأفقي بين عناصر البنية الفوقية، بين الفن و الفكر و هناك استقلال عمودي نسبي بين البنيتين. وهناك أيضا تفاعل بين الطرفين.و هكذا نجد أن العلم و الأدب يدخلان ضمن إطار واحد هو الجانب النظري العقلي في حياة الأمة ، فالعلاقة بين الاثنين علاقة جوار.

غير أنه من الضروري أن نفرق بين الأدب كفن ، و بين العلم البحت. حقيقة إن كلا منهما معرفة إنسانية، و كلا منهما ينتمي إلى الصنف نفسه و لكنهما مختلفان وينبغي تحديد هذا الاختلاف.

إن المعرفة العلمية تتميز بأنها معرفة منطقية عقلية ، تتصل بالأمور الكلية و تعميم القوانين المستنبطة على أفراد الجنس الواحد . و تقوم هذه المعرفة بدراسة العلاقات بين أفراد الجنس.

أما المعرفة الفنية أو الأدبية خصوصا ، فإنها معرفة حدسية خيالية أو تخيلية ، تتعلق بالموضوع المعبر عنه ، أو الموصوف.[14]

وكمثال على الفرق بين المعرفة العلمية ، و المعرفة الفنية نأخذ نظرة كل منهما للعين البشرية، إن جميع العيون في نظر العالم تتألف من شبكية و قرنية و قزحية، تستوي في ذلك كل أشكال و ألوان العيون، الزرقاء و السوداء.. إن العين الحوراء التي تعانق نظرتها نظرتنا ،فإذا نحن نشاوي نكاد من سكر نترنح إن هذه العين بهذه المواصفات، وبهذا التأثير ليست في نظر العلم إلا عضوا يتركب من الأجزاء المعروفة، وهي في التحليل الأخير ليست إلا عضوا يتألف من آزوت و فحم و ماء. و ليست العين وحدها ،بل كل الأعضاء هي كذلك، بل كل مخلوقات الله، العين والصدر، والشعر، والرجل والمرأة ، الإنسان والحيوان، آزوت و فحم و ماء ثم إلكترونات و بروتونات تدور وتدور.. تستوي في ذلك المادة الحية والمادة الجامدة، هذه هي نظرة العلم، و نظرة العالم(15).

أما الأدب و الفن عامة فأمر آخر ، إنه يبعث الحياة في الشيء الموصوف فيكشف عن الحقيقة الباطنة في الأشياء ، يعيد لنا العلاقة بالحياة، يسمعنا خرير الماء و حفيف الأوراق . و صوت الإنسان في تحديه للزمن الغاشم. الأدب يزيح عن الأشياء حجاب العادة ، و الروتين ، و يسمح لنا بالنفاذ إلى جوهر الأشياء ، و التمتع بالحياة.

و إذا كان العلم يلغي بعضه بعضا ، فما كان علما في القرون الماضية أصبح تاريخا للعلم الآن . إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للعلم فإن الأدب يختلف ، إن ما قاله "امرؤ القيس" ،أو "شكسبير" لا يزال حيا باقيا لا يبلى ، لأن الحقيقة التي يعنى بها الأدب العظيم تظل حية باقية في وجدان الأمة و الإنسانية جمعاء.

الأدب يحتوي على مختلف الثقافات و الحضارات و التطلعات الإنسانية فهو يحكى قصة المشاعر الإنسانية عبر التاريخ في جحيم ثورتها ، ونعيم محبتها ، يحكي قدرة الإنسان على هزيمة القدر ، و تحديه للزمن و منافسته للواقع ، و خلقه لعالم جديد مغاير للعالم الطبيعي..

و بدراستنا للأدب نقوم بتطهير النفوس ، و تهذيب الأخلاق ، و تربية الأذواق.. و الأدباء في الأمة هم بمثابة قلب الشعب و ضميره و إحساسه، وما ينتجه الأديب يعبر عن الجماعة ،رغم انطلاقه أساسا من الفرد.

و إذا كان العلم ضروريا فإن الأدب يقف معه على درجة المساواة و كلاهما يكمل و يشكل جزءا من الجانب العقلي النظري في حياة الأمة ،و إذا كان بعض الناس يميلون إلى الناحية العلمية ،فإن بعضا آخر منهم يميل إلى الأدب ، ووجود كل منهم ضروري

بالدرجة نفسها ، و لا تناقض بين الصنفين ، فالحياة تتسع للاثنين للمعايشة في أمن و تعاون و سلام ،وكل طرح يقصي الطرف الثاني أو الطرف الأول هو طرح يدل على قصر النظر.. خاصة و قد تعانق العلم و الأدب ، و تعاونا ، فاستخدمت العلوم الإنسانية كثيرا من الأمور العلمية ، و استخدمت العلوم الخالصة الأدب لإضفاء مسحة إنسانية جمالية على مصوغاتها النظرية.

و كلما حقق المجتمع تطورا و تقدما ، مس هذا التقدم العلم و الأدب بدرجة متقاربة ، كما أن ذلك التقدم متقارب بين الجانبين المادي و النظري وعليه فإن التقدم التكنولوجي لم يكن و لن يكون على حساب الأدب ، و يخطئ أولئك الذين يدقون ناقوس الخطر أمام الأدب حين يجدون أن جهاز الإعلام الآلي يمكن أن يحفظ كل الكلمات التي يحتاجها الشاعر لتقفية القصيدة بقافية معينة ، يرون أن الشاعر مهدد في ذاكرته و موهبته و إبداعه.. و هي رؤية خاطئة ، و لعلها ساذجة أيضا.. فما هو محفوظ في الإعلام الآلي مثلا كان من قبل موجودا في المعاجم و القواميس ، و كل كلمات القصيدة أي قصيدة موجودة في المعجم ، فهل المعجم قصيدة ؟! و هل ألغت المعاجم القصائد.. و كذلك جهاز الإعلام الآلي. يمكنه أن يخدم الشاعر و لكنه لن يلغيه ، و لن ينال من موهبة الإبداع لديه.

و أخيرا نأمل أن تصحح النظرة الخاطئة للأدب ، و نرجو أن يدرك المخططون في هذا المجتمع الأهمية القصوى للأدب ، إبداعا و دراسة و نشاطا خدمة للمجتمع بتهذيب النفوس ، و ترقية الأذواق ، و تغذية الأرواح و سموا بالأحاسيس ، و بعبارة واحدة خدمة الإنسان.

المراجع والهوامش

1 . محمد العابد الجابري : نحن والتراث ، قراءة معاصرة في تراثنا القلسفي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ،ط4 ،1985 ، ص27

2 . المرجع نفسه ، ص 28 . 29

3. يرى أفلاطون (427–347 ق.م) أن كل الفنون قائمة على التقليد (محاكاة المحاكاة) فهو يعتقد أن الوعي أسبق في الوجود من المادة ، و عليه فالعالم المادي صورة للعالم المثالي ، و الأدب محاكاة للمحاكاة ،أي محاكاة لعالم الطبيعة ، و من هنا بعده عن الحقيقة.

4. جميل صليبا: من أفلاطون إلى ابن سينا ،دار الأندلس ، الطبعة الرابعة.

5 . د . شكري. عزيز الماضي : في نظرية الأدب ، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت ط1 ، 1986 ، ص 28.

6 . المرجع نفسه.ص 40.38

7 . د. عدنان يوسف سكيك : (ضرورة الأدب لحياة الفرد و المجتمع) بحث ألقي في الملتقى الدولي حول جدوى الأدب في عالمنا اليوم المنعقد بباتنة الجزائر في 14-16 ديسمبر 1986.ص3

8 . وردزورث. شاعر إنجليزي (1770-1880م).

9 . المرجع نفسه.ص4

10 - شيلي . شاعر إنجليزي ولد سنة 1792م تعلم بأكسفورد ببريطانيا ، و طرد من الجامعة بسبب تأليفه كتابا بعنوان "ضرورة الإلحاد" سنة 1811م ، و من أهم قصائده قصيدة الريح الغربية. مات سنة 1822م غرقا عندما كان يتنزه على مركبة في البحر.

11 -د. ميشال عاصي :الفن و الأدب ، بحث جمالي في الأنواع و المدارس الأدبية و الفنية ،مؤسسة نوفل ،بيروت . لبنان ط3 /1980 ، ص17.

13 .-د. ميشال عاصي :الفن و الأدب ، بحث جمالي في الأنواع و المدارس الأدبية و الفنية ،مؤسسة نوفل ،بيروت . لبنان ط3 /1980 ، ص17.

14 . د. عبد الكريم محمد الشريف :(المعرفة الفنية و المعرفة العلمية) ، محاضرة ألقيت على طلبة السنة الأولى جامعي بمعهد الآداب بجامعة باتنة في 86/09/30.ص2

15 . المرجع نفسه . ص3